**محاضرة رقم (1): الصرع بين القديم والحديث**

**تمهيد:**

الصراع بين القديم والحديث قائم في كل عصر وزمن وفي أدب وفن، فهي مسألة تتوقف عليها حياة الأمم والشعوب، وكل ما أثيرت هذه القضية وقع الخلاف واحتدم الصراع، وتباينت الآراء بين رافض ومؤيد ومحايد، وتفرق الدارسون في مجال الأدب إلى طوائف، فمنهم متعصب للقديم عصبية عمياء، ومنهم منتصر للجديد لا يرى غيره، ومنهم من امسك العصى من وسطها، ومرده في ذلك الجودة في الصنعة بعيدا عن العصر والزمان، ومشكلة الصراع بين القديم والحديث في العصر العباسي أفرزت ثلاث فئات: فئة تتعصب للقديم، وفئة تنتصر للحديث، وفئة معتدلة.

إن الصراع بين القديم والحديث مردّه ظهور التيار الجديد لدى المحدثين، أمثال " بشار بن برد" و "أبي نواس" و "أبي تمام" وغيرهم كثر، هذا التيار المجدد الذي احدث انقلابا جذريا وثورة على بناء القصيدة العربية القديمة وعمودها الشعري، مخالفا بذلك سنة القدماء في طريقة نظم القصيدة، كاسرا جميع القيود التي ألزم الشاعر القديم نفسه بها.

الفئة المتعصبة للقديم: التف بعض الشعراء حول القديم ونظروا إليه بعين التقديس والإجلال، وتعصبوا تعصبا أعمى له، فلم يقبلوا بأي دعوة للتجديد والابتكار، ورأوا أن الخروج عن القديم عيب، ومن ابرز المتعصبين لقديم الرافضين لكل جديد "أبو عمرو بن العلاء"، يقول عن الأخطل: «لو أدرك يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت عليه أحدا وهذا كلام في منتهى الغاربة والبعد عن المنطق، ويذهب أبو عمر بن العلاء في مذهبه هذا إلى التحيز الصارخ للقديم يجاهر به نهارا جهارا معلنا عن موقفه من المحدثين فيجيب حين سؤل عن مذهل المحدثين فقال: كل على غيرهم إن قالوا حسنا سبقوا إليه وإن قالوا قبيحا فمن عندهم»، يبدو أن رأي "أبو عمرو بن العلاء" متعصب عصبية مقيتة لا تدفع عجلة الإبداع إلى الأمام، بل تزيدها تقهقرا وتخلفا، ذلك أن المتعصبين في للقديم بنوا أرائهم على مبدأ القدم في العصر (الزمن) مهملين مبدأ الجودة والإبداع في الصنعة، وفي هذا يقول "ابن مناذر لأبي عبيدة" : «لا تقل ذاك جاهلي وهذا إسلامي، وذاك قديم وهذا محدث فتحكم بين العصرين ليس بمعقول بماكان أن تكون المفاضلة بين الشعراء محكها قدم العصر أو جدته، وإنما المحك الصحيح الجودة والبراعة والإبداع».

وتبرز العصبية للقديم في موقف "ابن الأعرابي" حين تحدث عن شعر المحدثين فقال: «إنما أشعار هؤلاء المحدثين مثل أبي نواس وغيره مثل الريحان يُشمُّ يوما ويدوي فيرمى به وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا» إنها قمة التعصب للقديم، وتظهر أيضا في قول "الأصمعي" في "بشار بن برد":«بشار خاتمة العراء، والله لولا أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم» إن هذه الآراء وغيرها لا تحتكم إلى موازين نقدية بناء فهي عشوائية واعتباطية مبنية أساسا على المشاعر والجوانب النفسية، فحبّ هؤلاء الشعراء للشعر القديم جعلهم يقيمون موازناتهم على العصبية وتشييع القديم، فهي بعيدة كل البعد عن المنطق والموضوعية، كأنها لم تصدر عن علماء لهم مكانتهم الأدبية واللغوية.

الفئة المنتصرة للجديد: بعدما تطرقنا إلى آراء بعض المتعصبين إلى القديم نتجه إلى الفئة الثانية التي تنتصر للجديد رافضة لكل قديم.

إن تيار المنتصرين للجديد هو ذلك التيار الذي حمل لواءه الشعراء المحدثون الذين ظهروا في العصر العباسي منطلقين من فكرة الرفض لكل ما هو قديم، والسخرية من قوالبه وطرائقه، وذلك لبعد الصلة بينهم وبين هذا الأخير ، فالأعراف القديمة لا تمت للعصر بصلة ولم تعد قادرة على وصف الحياة الجديدة بكل متغيراتها «فلم يعد مسكنهم الخيمة التي ترفع عمدها وتشد أطنابها في رمال الصحراء المنبسطة، وإنما غرف تزدان بالمناظر وتزركش بالستائر وتحلى بالمرصعات» لذلك آثر هؤلاء المحدثون أن يعبروا عن حياتهم بعيدا عن أي قيد أو عرف، وهو ما جعلهم يرفضون القديم والصلة به إلى حد التجريح.

فما حاجة الشاعر إذن إلى التقليد في ظل بعد المسافة بين حياة الشاعر الجاهلي الذي سكن البادية وترعرع فيها، وبين الشاعر العباسي الذي وجد نفسه بين أحضان القصور ومجالس المنادمة والطرب والرياض النظرة، ومن بين الشعراء الذين نددوا بالقدماء وبتقاليدهم وأعرافهم "أبو نواس" الذي ثار على المقدمة الطللية واستبدلها بالخمرية، يقول :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتـــي كانــت هي الداء

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لـــو مســـــــها حجر مـــستــــــهُ سرَّاءُ

قامـــت بإبريقها واللــيـــــل معــــــتكرٌ فلاح من وجهها في البيت لألاء

لقد تغنى "أبو نواس" بالخمر في معظم قصائده، واستهجن المقدمات الطللية وحاربها، يقول:

لا تبكِ ليلـــــى ولا تطـــرب إلى هنـد واشرب على الورد من حمراء كالورد

كأسا إذا انحدرت في حلق شاربها أجدتـــــه حـــــــمرتـــها في العــــين والـــــخـــــد

فالخــــمر ياقوتـــة والكـــــــأس لـــؤلـــؤة من كــــــفِّ جــــــاريـــة مـــــمشـــوقـــة الــــــقــدَّ

لقد تمرد الشعراء المحدثون على طرائق القدامى في نظم قصائدهم واختاروا لأنفسهم منهجا جديدا في الإبداع وراحوا يوظفون البديع إلى حد المغالاة، ومن بين المنتصرين أيضا للشعر الجديد "الصولي" الذي ظهر حبه للحديث في كتابه "أخبار أبي تمام" الذي أفصح فيه على مدى تعصبه لشعر أبي تمام وتفضيله على الشعراء.

الفئة المعتدلة: أقامت الفئة المعتدلة أرائها ومواقفها تجاه الخصومة بين القديم والحديث على فكرة جوهرية مفاده الاحتكام إلى معايير الجودة والحذق في الإبداع، والإجادة في السبك

ومن بين النقاد الذين وقفوا موقفا وسطا من القديم والحديث "الجاحظ" الذي احتكم إلى الجودة لم يتعصب للقديم، ولم يحب الحديث وإنما كان مبدأه في ذلك الإجادة في الإبداع، فأحدث "الجاحظ" بموقفه هذا ثورة قلب بها المفاهيم واحتذى بها من جاء بعده، وسار على نهجه ومنهم "ابن قتيبة" الذي راح يشرح نظرية الجاحظ ويعللها مبينا عن رأيه من قضية القديم والحديث وعلة استحسانه لشعر على شعر، ومفاضلته لشاعر على آخر، يقول: «لم اسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر على آخر مختارا له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخرهم»، ثم يوضح المحك الذي انتهجه في تصنيف الشعراء والحكم على إبداعاتهم بالجودة والرداءة، يقول:«نظرت بعين العدل إلى الفريقين وأعطيت كلا حقه ووفرت عليه حظه... لم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قوما دون قوم بل جعل الله ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثا في عصره»، إن الصراع بين القديم والحديث وانقسامه إلى متعصب ومناصر يجعلنا نقول إنه من الحكمة أن يكون القديم مرجعية وذاكرة وجسرا إلى التجديد والابتكار، فالعلاقة بين القديم والحديث لا بد أن تكون علاقة تعايش لا إفراط ولا تفريط، فالحياة مبنية أساسا على الصراع بين القديم والحديث والتطلع إلى المستقبل، فالماضي هو نقطة الانطلاق عند جميع الشعوب، والحديث يصبح قديما مع مرور الوقت ويظهر جديد آخر يحاربه، يقو الدكتور " طه حسين":«نحن بحكم البقاء وحاجتنا إليه مضطرون إلى أن نصل بين أمس واليوم والغد مضطرون أن نصل بين القديم والجديد».